حـــول تحقـــيق التّراث

بقـلم محمد العروسي المطـوى

من المسلم به أن التراث العربي الإسلامي من أوسع أنواع التراث في العالم إن لم يكن أوسعها. وهذا يعود إلى اتساع رقعة الحضارة العربية الإسلامية مكاناً وزماناً. وهي الحضارة التي امتدت أشعتها من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي ومن جنوبي أندونيسيا إلى جنوبي أوروبا. وكانت تلك الرقعة الواسعة ـ وما تزال ـ تضم شعوباً ولغات وأجناساً مختلفة. وكان لكلّ منها نصيب المساهمة، أو التفاعل على الأقل مع ذلك التراث. وكان لكلّ صقع من تلك الأصقاع، وكل جنس، وكل شعب من العادات والتقاليد، واللهجات واللغات ما يترك بصماته على التراث المكتوب منه خاصة. وفي مخزون المخطوطات العربية الكثير من الأمثلة والشواهد على ذلك. وكان من العسير أن تجد المرجع الشامل لكل تلك البصمات التي التحمت بذلك المحصول الحضاري فتعود إليه دفعاً لأشكال، أو تفسيراً لمبهم، أو شرحاً لمقصود. ومن هنا كانت الصعوبة، وجاء الإشكال حتى بالنسبة إلى اللغة الواحدة والعربية منها بالذات التي لم تقف موقف الجمود والانغلاق أمام اللغات الأخرى التي اعتنق أصحابها الإسلام أو امتزجوا وتفاعلوا بحضارته. ومن هنا تكمن الصعوبة في تناول الكثير من المخطوطات العربية لأنك تجد فيها الكثير من الألفاظ والمدلولات ذات الأصول غير العربية ينالها التحريف أو التصحيف حتى البعد عن المعنى المقصود بدعوى تناولها بالإصلاح والتقويم. هذا بالإضافة إلى التسرع في الاستنتاج أو في الكسب المادي، أو بسبب الاعتماد على النقل من لغة أجنبية ثانية فيؤتى بالكلمة محرفة أو منحرفة عن تهجيتها الأصلية.

ولسنا الآن ـ في هذه المحاولة ـ بمحصين لتلك الأخطاء ـ فذلك عسير على الجماعة بل الفرد ـ وإنما حسبنا أن نقدم نماذج من أخطاء المحققين للتراث العربي في بعض نماذج من الأعمال التراثية عسى أن يكون هذا حافزاً لهمم المتصدين لهذا العمل حتى يتعاونوا على التقويم وإخراج ذلك التراث في صورة سليمة صحيحة قدر الإمكان.

وفي البداية سوف أذكر بعض النماذج التي هي أقرب إلى الأطروفة والنكتة مما جاء في نشرة تاريخ عبد الرحمان بن خلدون التي أصدرتها دار الكتاب اللبناني في بيروت. ولو اكتفت النشرة بالمقارنة بين النسخ لهان الأمر ولكن التوجه إلى الشرح والفهارس العلمية جعل المآخذ كثيرة جداً على تلك النشرة. ويلح ناشرو الكتاب على القول بأنهم أثبتوا «محتويات هذا السفر النفيس بحذافيرها عملاً بالأمانة في النقل وحرصاً على فائدة القراء. والله ولي التوفيق[1]» والحرص على فائدة القراء والأمانة في النقل يقتضيان الأمانة في الشرح أيضاً. أما أن تكون لا تعرف المعنى ـ ويكون في غاية الظهور ـ فتقلب ذلك المعنى بسرعة واعتباطاً فذلك ليس من الأمانة في شيء. وقد وصلت غرابة الشرح عند ناشري كتاب العبر لابن خلدون أن جعلوا من الكتب الواردة في نص ابن خلدون «كتاب الحمار» ولعلك تندهش كما اندهشت. وتعود إلى نص كتاب حيث الصفحة التي أثبتها الناشر فماذا تجد في النص؟ تجد أن الحديث عن الثائر مخلد بن كيداد المشهور بلقب «أبو يزيد» أو «صاحب الحمار» والنص واضح في أن الحديث ليس عن الكتب ولا عن

الأحمرة. فعبارة النص هي كما يلي «.. فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبي يزيد صاحب الحمار أنهما لأب واحد[2]».

ومن طرائف الشروح كذلك شرحهم لكلمة الحامة الواردة في نفس الجزء. فالحامة الواردة في النص تعني بلدة ذات مياه حارة معدنية إطلاقها الفصيح «حَمّة» وهي مذكورة في كتب المسالك القديمة. والمشهور منها في البلاد التونسية اثنتان هما حامة الجريد وحامة قابس. والأخيرة هي المقصودة في نص ابن خلدون. وقد فسر الناشرون كلمة الحامة بما يلي «.. خاصة الرجل من أهله وولده - وخيار الإبل - عن القاموس المحيط[3]». ولم يكلّف الناشرون أنفسهم نظرة بسيطة على السياق الذي وردت فيه كلمة الحامة مرتين وهو سياق لا صلة له إطلاقاً بالشرح المذكور. في المرة الأولى كان النص هو «.. وأشخصه عن الحضرة وولاه أعمال الحامة[4]» والمرة الثانية هي «.. فأنزله بمكانه من الحضرة وسرّحه بعض الأحايين إلى الحامة لِحَسم الداء فيها[5]».

وما دمنا مع كتاب العبر لابن خلدون فلا بأس أن نورد أمثلة أخرى من سوء التحقيق ودائماً على سبيل المثال لا الحصر.

جاء في الصفحة (567) من الجزء السادس قوله: «.. وأحاط به ونازله حولاً كريتا» فوقع التعليق على لفظة «كريتا» بما يلي: «كذا بالأصل في النسخة التونسية. وبياض بالأصل في النسخة المصرية طبعة بولاق. والأرجح حولاً كاملاً[6]» ولو كلّف الناشر نفسه الاطلاع على القاموس المحيط لوجد فيها ما يلي: «.. سنة كريت: سنة تامة».

وفي صفحة 566 من نفس الجزء علّق الناشرون على جملة «.. واقتسما المغرب شقَّ الأُبلمة» بقولهم «.. كذا بالأصل. وفي ب: الأبلة». ولو رجعوا إلى القاموس لوجدوا: «.. والمال بيننا شق الأبلمة أي نصفين[7]».

وفي صفحة (589) وردت هذه الجملة «.. ونقل أبو بكر إلى مطبق المهدية.فأردع به..» وكان التعليق هكذا «.. كذا بالأصل فردع به بمعنى صرع..» وكأن الناشرين لا يعلمون أن المطبق يراد به السجن أو أودع بالسجن لا أنه ردع به. وكلمة «المطبق» تعني السجن المضيق مستعملة إلى اليوم في بعض الأقطار العربية.

وفي صفحة 784 من نفس الجزء «.. فلما انتهى إليهم توثبوا به وشدوه كتافاً، وتلّوه إلى محبسه بالبرج المعد لقثاف مثله بالقصبة» وعلّقوا على كلمة «قثاف» بما يلي «.. كذا ولم نجد لها معنى في كتب اللغة. وفي ب لعقاب مثله. وهو الأصح». وغاب عن الجماعة أن الصواب هو ثقاف مثله أي تأديب مثله وتقويم اعوجاجه.

وفي صفحة 431 من الجزء السابع هذه الفقرة «.. وسرّحه إلى إشبيلية ليكون ربية للمعسكر وبعث معه عيوناً من اليهود والمعاهدين من النصارى يتعرفون له أخبار الطاغية شانجة» وعلّق الناشرون على لفظة «ربية» «.. كذا ولا معنى لها هنا. وفي ت: رتبة ومقتضى السياق: ليكون قائداً للمعسكر. وقد يقصد بها الزيادة مجازاً، من ربا المال..».

وفات الناشرين أن أصل الكلمة «ربيئة» والربيئة والربيء هو الطليعة الذي يرقب العدو من مكان عال لئلا يدهم قومه[8].

وفي هذا السياق يمكن أن نذكر نماذج من الملاحظات حول ما أثبته الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في كتابة «تاريخ المغرب العربي»[9]. ففي صفحات (173, 174) في حديثه عن المعارك التي وقعت بين كسيلة وزهير بن قيس يتعرض لمعركة مَمّس بالسين المهملة كما هي في المصادر المعتمدة[10] إلاّ أن المؤلف يثبّتها بالشين المعجمة دون أن يذكر مصدراً في ذلك ولو أنها مذكورة في مصادر قليلة جداً[11].

وفي الصفحة الموالية (175)[12] عند التعرض لفتح شبقنارية يتابع الدكتور حسين مؤنس في تحقيقه لرياض النفوس[13] في قوله وتسمّى حالياً «الكف» ناقلين ذلك - فيما يبدو - على نص فرنسي لأن صحة الكلمة «الكاف» لا «الكف».

أما في صفحة 177 فيقول: ويفهم من رواية ابن عبد الحكم أن الروم كانوا قد اتخذوا مدينة درنة (القريبة من طبرقة) مركزاً لهم. والصحيح أنها طبرق لا طبرقة التي تقع غربي البلاد التونسية قرب الحدود الجزائرية. ويظهر أن الدكتور زغلول تابع الأستاذ عبد المنعم عامر في تحقيقه لكتاب ابن عبد الحكم تاركاً كلمة «طبرقة» في النص كما هي. وزاد في الأبعاد عندما علّق عليها بقوله: بلدة في ساحل تونس على بعد خمسة عشر كيلومتراً من حدود الجزائر[14] بينما ينص ابن عبد الحكم على أنها من أرض طرابلس.

والاعتماد على النصوص الأجنبية هو الذي جعل الدكتور زغلول يقع مرة أخرى في التصحيف عندما يقول في صفحة (201) سبخة الريانة عوض سبخة أريانة[15]. وعلى ذكر الدكتور حسين مؤنس وكتاب رياض النفوس يحسن أن نذكر بعض الملاحظات حول أعمال تحقيق ذلك الكتاب النفيس.

ففي صفحة (163) من الجزء الأول من رياض النفوس في ترجمة عنبسة بن خارجة وردت هذه الجملة «.. وكان مقام أبي خارجة في حصن على البحر يقال له ينقة في ناحية صفاقس في الغربي منها» ولكن المحقق (حسين مؤنس) علّق على لفظة «ينقه» بعد أن غيّرها إلى «بقة» بقوله: في الأصل من غير نقط هكذا سعه. وقد صححت هذا الاسم بناء على ما جاء في «المغرب في بلاد إفريقية والمغرب» عن الكلام عن ناحية

المهدية: .. وكان لها أرباض كثيرة آهلة عامرة أقربها إليها ربض زويلة فيه الأسواق والحمامات. وربض الحمى كان مسكناً لأجناد إفريقية من العرب والبربر وقصر أبي سعيد وبقة الخ[16].

ونفس نص الرياض يبعد أن يكون المقصود حصن بقة القريب من المهدية لأنه لا يكون غربي صفاقس. والذي يعنيه نص رياض النفوس حصن ينقة الذي يقع بعد المحرس في اتجاه قابس وعلى ساحل البحر. وهو حصن قديم من عهد الرومان يطلق عليه الناس اليوم سيدي عنبسة. ومن أمثال المنطقة إلى اليوم «زي مضرورة ينقة».

ومن ذلك ما جاء في صفحة 206 من ذكر لكلمة «التاكما» فحولها المحقق لفظة التالة وعلّق عليها هكذا «.. رسمها النساخ في الأصل خطأ: التاكما. وقد جاء في ملحق القواميس العربية لدوزي ما يلي: (Dumas, تالة espece de scorsonere V. A 382), salsifis sauvage, Dozy supplement aux dictionnaires arabes I, 139 أي إنه نوع من الحشائش التي تؤكل[17]». والقضية لا تتعلق بنوع النبات أو الحشائش التي تؤكل فقد جاء في النص في رياض النفوس كما يلي: «.. كنت جالساً عند مالك فجاء قوم من البربر من أهل المغرب فسألوه فقالوا: ما تقول في التاكما. فوصفوه له فلم نفهمه. فقالوا لي: وكنت أحدَثَ من في المجلس سنّاً: قم فقمت فربطوه علي كما يفعلون في بلادهم. فقال لهم مالك: لم تفعلون هذا؟ قالوا: نجمع فيه الحشيش من الزرع فتحضر الصلاة. فقال لهم مالك: إذا كنتم إنما تفعلون هذا لمنافعكم فتحضركم الصلاة فتصلون به هكذا. ما أرى به بأساً إن شاء الله[18]» وهكذا يبدو أن الأمر يتعلق بشيء يربط ويوضع فيه الحشيش أو الزرع. أما كلمة «التاكما» فهي من أصل بربري «تكمست» وأن أهالي الجنوب التونسي ما تزال عندهم كلمة «التاكمية» أو التوكامية ويعنون بها ما يربط بالأحزام أو الوزرة من صرة صغيرة تساعد على الشد من ناحية وعلى استعمال قسم من الأحزام أو الوزرة لحمل الحشيش وغيره على الظهر من ناحية أخرى.

وفي ترجمة ابن هارون الأندلسي حدث أبو بكر المؤدب أن أبا هارون قال له مراراً كثيرة إنه اشتهى «حوت قلقط» ولكن محقق الرياض استند إلى دوزي في رسم الكلمة بقاف أولى وفاء ثانية (قلفط) وقال: هكذا رسمها دوزي. وقد استشهد بهذه الفقرة بالذات من رياض النفوس ولم يضف أي تفصيل من عنده[19].

وكل ذلك غلط لأن صحة الكلمة هي «قلقط» بقاف أولى وقاف ثانية. وهو سمك معروف بهذا في مواطن عديدة بالساحل التونسي. وما زال متداولاً إلى اليوم[20] والقلقط نوع من البلميط (Bonite) والبونيت (عربية بنيت) يطلق على أسماك كثيرة من فصيلة الأسقمريات القريبة من التن[21].

وفي ترجمة واصل اللخمي المتعبد ورد خبر عن سعيد الخولاني أنه اشتهى زرازير بيضاء إلى أن قال: وفتح الجراب فأخرج منه منديلاً فيه اثنا عشر زرزوراً «ويعلق المحقق على ذلك بقوله: في الأصل «ثردة»[22] أي عوض كلمة زرزورا لكن دون أن يعطي موجباً لذلك التغيير.

أما روجير إدريس في مناقب محرز بن خلف فقد اكتفى بالمقارنة بين النسخ للكلمة «قرداً» في الفقرة التالية «.. قال: وخرجنا معه إلى قرطاج يوماً برسم الصلاة على جنازة فرأى قرداً قد وحل في خطارة[23]» لكنه أثبت في النص الرواية التي تكتب الكلمة (فرداً) بالفاء وفي الهامش أثبت رواية تقول (قرداً) بالقاف، ورواية بدون إعجام الحروف ورواية (تردا) بالتاء المثناة وذلك هو الصحيح في نص مناقب محرز بن خلف وفي رياض النفوس المالكي.

وقد نقل دوزي نفس عبارة رياض النفوس معلقاً عليها بأنه نوع من الطيور يسمى بالفرنسية (Grive)[24] واسمه العربي «سمن» أما اسمه العلمي فهو «ترندوس/Turdus»[25] وواضح أن ذلك هو أصل الكلمة الواردة في النصين مما لا موجب لإبدالها بلفظة الزرزور في نصّ الرياض، أو تفضيل نسخة «الفرد» على نسخة «الترد» التي هي الصحيحة.

والملاحظ أن لفظة «ترد» ما تزال رائجة في البلاد التونسية (واحات قابس، مثلاً) ومن محفوظات الشعر الشعبي عندي منذ الصغر «.. والترد غريم الفلاح..».

ومن طرائف التصحيف ما حصل للفظة غزرة عندما انتقلت من اسم مكان إلى اسم نبات. فقد ذكر ابن البيطار هذه اللفظة في كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» عند حديثه عن نبات «الدار» المعروف بقوله: «.. وهذا النبات كثير بإفريقية مشهور بها بما ذكرت وخاصة بموضع من أعمال باجة[26] القيروان يسمّى عزرة[27]» وعندما ترجم «لوسيان لوكليروك» كتاب «الجامع» إلى الفرنسية التبس عليه الأمر فحسب أن «عزرة» اسم نبات لا اسم موضع[28] بالرغم من أنه أصلح الخطأ الذي حصل في طبعة بولاق عندما جاء فيها «ناحية القيروان» لا باجة القيروان[29] وعزرة هي الآن مركز عمادة من عمادات ولاية باجة[30].

ومن هذه الطرائف ما حصل لكلمة «تاسومة» فقد ذكر القاضي عياض في كتاب «المدارك» عند ترجمته ليوسف بن مسرور الصيرفي ما يلي: «.. وذكر أنه لم يكن في بيته غير

كتبه، وجلد صوف، وركوة، وتاسومة. . .[31]». وكلمة تاسومة غير واضحة ولا متحدة الرسم في مختلف النسخ ونجد الأستاذ محمد الطالبي يعتمد كتابة «مأمومة» في تراجم أغلبية ويعلق عليها بما يلي:

«5 ت مامونة؟ والمراد حجرة التيمم. ولم ترد الكلمة بهذا المعنى في المعاجم القديمة. ففي تاج العروس (ج 8 ص 191) مثلاً: المأمومة أم الدماغ المشجوجة فهي إذاً من الكلمات غير القاموسية. . .[32]» وهذا التأويل والتأكيد عليه لا وجه له. أولاً لأن السياق لا يساند هذا التأويل فحجرة التيمم ليست من مكاسب الغنى ولا من مكاسب الفقر. وثانياً أن الكلمة محرّفة عن النساخ عن كلمة «تاسومة» وقد استشهد دوزي بهذا النص عن أبي عبد المالكي في الجزء الثاني من رياض النفوس[33] وهي لا تعدو أن تكون فعْلاً خفيفة من جلد أو من ليف[34] (عفاس) وذلك شيء يتماشى مع الركوة وجلد الصوف كأثاث لهذا الزاهد المتعبد.

ويمكن أن نختم هذا البحث النموذجي بتصحيف وتحريف جرى على اسم لحن شعبي معروف هو لحن «المزموم» ففي ترجمة تميم بم المعز الصنهاجي نقل العماد الأصفهاني في جريدة القصر وجريدة العصر» مجموعة من أشعار هذا الأمير منها قوله:

لله ليلتنا ونحن نديرها ... كأساً معتقة من الخرطوم
والطبل يخفق والمزامر حوله ... تتخالف العيدان في المزموم[35]

وكلمة «المزموم» لحن شائع معروف عندنا خاصة في تونس وقد تواصل ذكره ونغمه طيلة القرون. ولكن عندما عمد الأستاذان المصريان عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم إلى تحقيق هذا الكتاب ووصلا إلى تحقيق البيت الذي فيه المزموم قالا في الهامش «. . في الأصل: في المرموم. ولعلّ الصواب ما أثبتناه» وما أثبتاه هو «. . تتخالف العيدان في الترنيم[35]».

ويعد فهذه نماذج من هفوات التحقيق لكتب التراث لم أقصد بها التشهير أو التعريض بقدر ما عنيت من التنبيه إلى ضرورة العناية والحرص على الدقة، وألّا يقودنا حب السهولة، أو رغبة الكسب، أو الركون إلى الدعة إلى نفض الغبار عن تراثنا في صورة غير مجلوة أو فيها من بعد التأويل أو سوء التحريف ما يجعلنا نسيء إليها بدون قصد لا محالة.

هوامش

(1) العبر (6 :79)
(2) (6 :176)
(3) العبر (6 :793)
(4) المصدر السابق
(5) المصدر السابق ص 795
(6) وهو الأصح.
(7) المحيط مادة (بلم)
(8) معاجم اللغة (مادة ربأ)
(9) نشر دار المعارف. القاهرة 1965
(10) ينظر المغرب (32) الرياض للمالكي
(11) (30) الرقيق (50) معجم البلدان (4 :642) اللباب (2 :178) لب اللباب (253)
(11) الكامل لابن الأثير (ـغ ـ% 109)
(12) هامش (3)
(13) رياض النفوس (1 :30 هامش 5).
(14) فتوح مصر والمغرب (273 هامش 2)
(15) انظر خريطة ص: 201
(16) الرياض (1 :163 هامش (4)
(17) الرياض (206 هامش (1)
(18) رياض النفوس (1 :206)
(19) رياض النفوس (1 :422 هامش (7) ودوزي (2 :397)
(20) تنظر قائمة الأسواق البلدية لمدينة تونس
(21) معلمة لاروس. ومعجم المصطلحات العلمية والفنية ليوسف خياط. ويمكن العودة أيضاً إلى معجم الحيوان لأمين معلوف والموسوعة في علوم الطبيعة لأدوار غالب وغيرها.
(22) الرياض (1 :340 هامش 1)
(23) مناقب محرز بن خلف ضمن مناقب الجبنياني (122) طبع باريس 1958
(24) دوزي (ملحق القواميس العربية 1 :144)
(25) يوسف خياط (معجم المصطلحات العلمية والفنية) مادة سمن
(26) مكتوبة خطأ ناحية
(27) الجامع لابن البيطار (2 :46)
(28) الترجمة الفرنسية لكتاب الجامع (2 :5)
(29) انظر الهامش (26)
(30) قرار كاتب الدولة للداخلية (27 - 9 - 1957) والعمادة كان يطلق لذلك العهد «مشيخة».
(31) المدارك مخطوطة (3 :89 ظ)
(32) تراجم أغلبية (417)
(33) ملحق القواميس (1 :138, 139)
(34) ينظر المصدر السابق ومعجم الملابس العربية لدوزي كذلك (104)
(35) جريدة القصر قسم شعراء المغرب (1 :156) تحقيق محمد المرزوقي، الجيلاني بلحاج يحيى، محمد العروسي المطوي طبع تونس 1966
(36) الجريدة قسم شعراء المغرب طبع مصر (1 :182)